

الممارسات الدينية والطقوسية لطرق الاستمطار ببلاد المغرب الأوسط
خلال العهد الزياني (ق7-10هـ/13-16م).

**Religious and ritual practices of the methods of rain in the Middle
Maghreb during the Zayani era
(7-10AH /13-16AD)**

هناني جيلالي^{*1}

¹ جامعة تلمسان-الجزائر-

djilali.hist@gmail.com

أ.د. بن داود نصر الدين²

² جامعة تلمسان-الجزائر-

bend_nasr@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2020/09/06

تاريخ الاستلام: 2020/08/15

ملخص:

يُعتبر مجال الطقوس والمعتقدات جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الشعبية لسكان بلاد المغرب، وهو امتداد لشعوبها على مرّ العصور السابقة واللاحقة، هذا ما يجعلنا نستأنس بجانب مهمّ منها والخاصّ بطقوس الاستمطار، وتحديدًا لمنطقة بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، في ظلّ وجود الإسلام وتمكّنه من ساكنتها، بيّد أنّ هذه الطقوس ظلّت تشكّل مسرحاً ثقافياً مستمراً، امتزجت مع تعاليم الدين الإسلامي خاصةً بالمناطق الريفية، وهذا ما تجلّى واضحاً ضمن الاحتفالات، والتبرك بالأولياء والصالحين وأداء الصلوات، وتقديم القرابين، والعادات والتقاليد التي عبّرت عن الارتباط المتين بتلك الطقوس ومباركتها، الأمر الذي جعل من المقدس يمتزج بالمدنس متجلياً في شكل رموز. الكلمات المفتاحية: الماء؛ طقوس الاستمطار؛ المعتقدات؛ المغرب الأوسط؛ العهد الزياني.

Abstract:

The field of rituals and beliefs is an integral part of the popular culture of the people of the Maghreb, and is an extension of its peoples through the previous and later ages.

This is what make us testify to important aspect of it,specificall the rituals of the Middle Maghreb region during the Zayani era,in the presence of Islam and its

* المؤلف المرسل: هناني جيلالي، الايميل: djilali.hist@gmail.com

ability to inhabit it, however ,these rituals continued to constitute a continuous cultural scene mixed with the teachings of the Islamic religion especially in the rural areas,and this is clearly reflected in the celebrations,the blessing of the saints and the righteous, the performance of prayers, the offering of offerings,customs and traditions that expressed the strong attachment to these rituals and its blessing. Wich made it sacred to blend with the cities manifested in the form of Symbols.

Keywords: Water؛ Rituals؛ Beliefs؛ Middle Maghreb؛ The Zayani era.

مقدمة:

يعتبر الماء مادة الحياة، ومورد الخصوبة بها، وهو أصل الكون إذ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الانبياء، الآية 30). ويقول أيضا: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) ﴿سورة فاطر، الآية 9﴾، ولذلك إتخذ له الانسان رموزا ثقافية وأحاطه بجملة من الطقوس والممارسات التي وصلت به حد التقديس، وأصبحت تمثل جزءا لا يتجزأ من حياته اليومية.

لاشك أن الطقوس والعقائد الدينية المتجدرة في عقول الشعوب منذ القدم، والخاصة بطلب الاستسقاء ظلت تشكل حلقة أساسية في حياتهم اليومية، كما كان لسكان بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة طقوسهم المعتمدة، والتي تمثل جانب كبير من ثقافتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية وعليه أردنا أن تكون لنا وقفة عند تلك الطقوس والمعتقدات، وإشكاليتنا الأساسية في هذه الدراسة تتمحور حول أهم الممارسات الدينية والطقوسية السائدة ببلاد المغرب الأوسط الخاصة بطلب المطر؟ ومنها محاولة البحث عن أصولها، ومعرفة أنواعها، وكيفية أدائها، وزمن تطبيقها، والوظائف التي تؤديها وما مدى تأثيرها بين أوساط شعوبها، وبمختلف أمصارها.

أولا: الجذور التاريخية لطقوس الاستمطار ببلاد المغرب الأوسط:

1-تعريف الطقوس: تشتق "لفظة طقس من الكلمة اللاتينية "Ritus"، ويقصد بها العبادات والاحتفالات الدينية أو العادات والتقاليد والأعراف، وتتواجد هذه المعلومات داخل اللهجات المتداولة المألوفة" (Maisonneuve، 1988، صفحة 03)، فالطقوس تشمل كل الشعائر والاحتفالات

الدينية، ولا يمكن أن نحدد مفهوما واحدا لمصطلح الطقس، إذ نجد متداول في كل الحقول المعرفية الخاصة بالعلوم الإنسانية، فهو حاضر عند الأنثولوجيين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء التحليل النفسي، وغيرهم. (شهير، 2012م، صفحة 35).

وقد ورد تعريفا آخر للطقوس في قاموس الأنثروبولوجيا يصفها بأنها: "فعاليات وأعمال تقليدية، لها علاقة بالدين والسحر، يحدد العرف أسبابها وأغراضها، والطقوس دائما مشتقة من حياة الشعب الذي يمارسها، كما يعتقد البدائيون أن أداءها يرضي الآلهة والقوى فوق الطبيعة، والمعبودات وعدمه يسبب غضبهم، ويجلب نعمتهم وتجري في الطقوس فعاليات مختلفة، كالرقص، وتقريب القرابين ونحر الأضاحي وأداء الصلوات وترديد التراتيل" (سليم، 1981م، صفحة 814). وهذا ما يفسر أن الطقوس تقام أساسا لقيمتها الرمزية، وقد يحدد تلك الطقوس أو المراسيم تراث الجماعة المشتركة، بما في ذلك المجتمعات الدينية، ويشير المصطلح عامة إلى مجموعة الأفعال الثابتة والمرتبطة، ويستثنى منها الأفعال التي يقوم بها المؤدون للطقوس اعتبارا.

إن الطقوس عند الأنثروبولوجيين الاجتماعيين، هي تلك الحركات المتكررة والمتفق عليها من طرف أفراد المجتمع، وهذا ما يشير إليه صاحب كتاب "الطقوس" "Les Retuels"، في قوله: "إن الطقوس عند علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي مجموعة حركات سلوكية متكررة يتفق عليها أبناء المجتمع وتكون على أنواع وأشكال مختلفة، تتناسب والغاية التي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعي للقيام بها" (Maisonneuve، 1988، الصفحات 6-7)، وهذا ما يبدو جليا من خلال أداء طقوس الاستمطار بمختلف المناطق، سواء من حيث أنماط الاحتفال، من أفعال وترتيب الكلمات والتعاويد، أو طريقة تقديم القرابين.

2- الأصول التاريخية لطقوس الاستمطار:

لقد عرفت حياة الأمم عبر التاريخ فترات جفاف، دفعت بهم للبحث عن سبل تقيهم شر هذه الظاهرة، وكثيرا ما كانوا يربطونها بمعتقدات دينية، ومنه اتخذت مظاهر العبادات المائية أشكالا مختلفة في بلاد المغرب عامة، والمغرب الأوسط خاصة، خلال فترة الدراسة، وذلك نتيجة التلاقح الثقافي مع الأمم التي استوطنته.

إنَّ أهمية الماء في حياة الانسان جعلته يكتسي طابعا متميزا في الموروث الشعبي، ويتجلى ذلك في ضرورة توفُّره، والبحث عنه مهما كلف الأمر، لأنَّه يمثِّل الحياة لكل الكائنات الحيَّة، ويظهر ذلك من خلال الممارسات الطَّقوسية التي يقوم بها سكان مناطق المغرب الأوسط باختلاف مجالاتها، أو في بعض المعتقدات الدينية كظاهرة التبرُّك بالأولية، الأحياء منهم والأموات وتقديس أضرحتهم، ويتجلى ذلك حتَّى من خلال الأمثلة والحِكَم والحكايات الشَّعبية السَّائدة بينهم.

تعتبر ظاهرة الاستمطار من الطَّقوس القديمة في الحياة الإنسانيَّة، حيث كان النَّاس يلجؤون إلى معابدهم وألتهم، ويطعمون فيها صلواتهم وطقوسهم، ويقدمون قرابينهم راجين سقوط المطر، ونتيجة للفترات العصبية التي شهدتها البلاد مجال الدراسة، ومنها ظاهرة الجفاف التي أصابت الحرث والنَّسل لجأ سكان المنطقة إلى البحث عن أساليب مختلفة من أجل طلب المطر لتهي أراضهم، وتستمر حياتهم وتأكل بمائهم.

أما عن الطَّقوس الخاصَّة لاستجلاب المطر عند سكان بلاد المغرب الأوسط، فيما يذكره "ادموند دوتي" في مؤلفه "السحر والدين في افريقيا الشماليَّة، ص401"، نقلا عن الفرد بل، فإنَّها كانت شفوية قديما، إلاَّ أنَّها تحولت إلى ابتهالات ودعوات مع دخول الإسلام، وهذا ما أوجد حسب رأيه تمازجا بين الطَّابع السحري والديني الإسلامي، الذي حدَّ من قوَّة تأثيرها بين أوساط المسلمين ببلاد المغرب عامَّة كونها عقائد خرافية لا مجال للاعتماد عليها في طلب المطر، لأنَّها قد تدفع بمن يمارسها للولوج في مجال الشُّرك بالله، إلاَّ أنَّها ظلَّت موجودة، ويبدو استمرارها جليا في الأوساط الريفية، أو بعض المدن ذات الطَّابع القروي" (بل، سبتمبر 2016، صفحة 9) .

هناك مجموعة من الممارسات الرمزية، التي يتم إحيائها لطلب الغيث، وإحصاب الأرض وتحقيق الارتواء، واستنادا على تلك الرموز المعتمدة في طلب الاستمطار ببلاد المغرب الأوسط، فيمكن اعتبارها من الآليات التي تترجم بواسطتها صور المقدس، وهذا من الناحية الأنثروبولوجية وتحمل أيضا دلائل الخصب والغيث، وبقية جذورها عالقة في أعماق الشعوب كلها عبر التاريخ، طالما الوضع الاقتصادي ظل مرتبعا بالطبيعة وسقوط الأمطار (بن عبد العزيز بنعيد الله ، 1417هـ-1996م، صفحة 447) في المناطق الأكثر تأثرا بتلك التقاليد الخاصَّة بطلب المطر.

ومما يمكن استنتاجه من ظاهرة انتشار طقوس الاستمطار ببلاد المغرب بشكل عام، وهو أنّها ممارسات طقوسية ومعبودات مرتبطة بخصوصية الماء وضرورته في الحياة، ولم تكن ظاهرة طارئة، أو دخيلة بل كانت لها جذور تاريخية، فامتدت استمراريتها إلى فترة الدراسة وما بعدها، ولها مواطن للتشابه بين المعتقدات المائية القديمة والحديثة، وهذا ما أشار إليه ستيفان فزال، في قوله: "لا زال الكثير من البربر حتى اليوم يتعاطون ممارسات ذات أصل سحري، هي عبارة عن طقوس آلية، وهم يقلدونها أو يثيرونها لتعطي النتائج المرجوة (ستيفان، 2007م، صفحة 107) ... أما رجوع أكثرها إلى عهد بالغ في القدم؛ فذلك ما لا شك فيه، وعلاقة القرابة التي تربطها بالتي نجدها في بلدان كثيرة مختلفة، تشهد بوجود أصل مشترك بالغ في القدم" (ستيفان، 2007م، صفحة 110).

بالرغم من التجذر التاريخي الذي شهدته ممارسة طقوس الاستمطار بمنطقة شمال إفريقيا قاطبة ولقرون عديدة، فإنّ الطقوس الخاصة بطلب المطر، والتي لا تزال تمارسها بعض المجتمعات اليوم، فإنّها لم تعد كما كانت من قبل، وأصبحت شكلية تسير نحو الانكماش والاندثار نتيجة التطور الذي تعيشه الأمة.

3- الماء في المتخيل الشعبي الزياني:

يُشكّل الماء في المتخيل الشعبي الزياني كباقي الشعوب المغاربية، خزانا طبيعيا لمجموعة من المعتقدات التي تجمع بين ما هو تاريخي وأسطوري، وما هو معقول وخرافي، كما تبرز بين العالم المرئي واللامرئي، هذا ما أعطى الماء طابعا رمزيا وطقوسيا متميّزا في سلوكات الانسان ببلاد المغرب الأوسط فلا تكاد تخلو عقيدة دينية من فكرة تقديس الماء، بطريقة معينة، سواء من الناحية الفكرية أو الطقوسية.

لا شك أنّ هناك أسباب كثيرة جعلت من الماء مركزا للاهتمامات الدينية عند البشر منذ القدم وحتى الآن، وهي أسباب مرتبطة أساسا بالظروف المناخية، فالماء هو المتحكم في الزراعة، وهو رمز للنماء ورمز الحياة، ومن الطبيعي أنّ يكتسي صبغة القداسة خاصة عند الحاجة، ولا غرابة في أنّ عبادة الماء ظاهرة سلوكية عرفتها الشعوب عامّة، كما شهدت انتشارا واسعا بين أهل الصحاري والمناطق الجافة.

كثيرا ما كان يجل الجفاف ببلاد المغرب الأوسط، والأكثر من ذلك أنه كان يعم أحيانا جميع أقاليم المغرب الإسلامي، مما كان يُعسّر الحياة؛ إذ لا مفر من قدر الله، وبحلوله كان يسود القنوط لأنه يعتبر من الجوائح (ابن منظور، 1410هـ-1990م، صفحة 431)، التي أصبحت تشكل خطرا، قد ينجم عنها مصائب أخرى، كالجاعة والأوبئة وانتشار الآفات الاجتماعية، منها الغلاء والغش والسرقة

والفواحش، وغيرها من المبيقات، رغم الاحتكار الذي كان معهودا بين السكان تحسبا لمثل هذه الأزمات (ابن خلدون ع.، 1431هـ/2001م، الصفحات 497-498)، ويذكر صاحب القرطاس أنه قد أصاب بلاد المغرب والأندلس مجاعة كبيرة، هلك الحرت والنسل، واشتدت وطأتها على السكان، ومات فيها الكثير فوصفها "بالمجاعة العظمى" (ابن أبي زرع، 2014م، صفحة 273).

تعدّ استمرارية تطبيق طقوس الاستمطار جزء لا يتجزأ من الثقافة الأصلية لسكان بلاد المغرب الأوسط، وعُرف من الأعراف الأساسية التي تقوي الروابط الاجتماعية، حيث لم تستطع التعليم الإسلامية استئصالها بالكامل (بل، سبتمبر 2016، صفحة 10)، وهي عبارة عن مجموعة من الممارسات الجماعية التي يقوم بها سكان الريف بوجه أخص (بل، سبتمبر 2016، صفحة 6).

إنّ ظاهرة استعمال الطقوس في طلب المطر لم تكن وليدة زمن معين أو مقتصرة على الفترة المحددة للدراسة، وإنما عُرفت عبر كل العصور، ومع كل الأديان التي عرفتها البشرية خاصة اليهودية والمسيحية أمّا الديانة الإسلامية فجاءت في صورة فريدة ومتميزة، تجسدت في أداء شعيرة دينية تتمثل في صلاة الاستسقاء، ومن خلالها التضرع إلى المولى عز وجل بطلب الغيث.

4- مواعيد سقوط المطر ببلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الزبانية.

ومما كان يُؤرق سكان بلاد المغرب الأوسط، تأخر سقوط الأمطار عن موعدها، بحيث اعتاد سكان بلاد المغرب عامة انتظار شهر أكتوبر، لأنّه موعد الحرت بالنسبة إليهم، وفيه تبدأ التساقطات وهذا ما يؤكده مارمول كاربخال، حينما يذكر: "أنّ الأمطار ببلاد البربر تبتدئ في آخر شهر أكتوبر" (كاربخال، 1404هـ-1984م، صفحة 30).

أمّا حسن الوزان، فيعتبر تأخر سقوط الأمطار في شهر أكتوبر عن إقليم ما، يكون وينا على أهله حيث لا يُرجى الحصاد فيه تلك السنة (الوزان، 1983م، صفحة 81)، ويبدو أن القصد في قوله لا يرجى الحصاد في العام الذي يتأخر فيه تساقط الأمطار في شهر أكتوبر، لأنّ الفلاح خلال هذه الفترة كان لا يتأخر في مرحلة البذر عن موسمها المعهود؛ وبدايتها تكون مع شهر أكتوبر، وإذا لم يسقط المطر فيؤدي ذلك إلى موت البذور تحت الأرض، وقد لا تنبت بسبب تعرّجها وتَعَفُّها، وعليه كان تساقط الأمطار ضروري خاصة مع بداية الموسم الفلاحي عند البذر، وأيضا عند تشكل السنابل، هذا ما كان

يدفع سكان بلاد المغرب الأوسط إلى التعجيل بأداء الطقوس، خاصة إقامة الوعدة والتي كانت تُحدّد زمنياً بحسب المناطق الريفية، وقرار أدائها يتم من طرف شيوخ القبيلة وأكابرها. واستناداً على ما أورده كل من مارمول كاربخال، وحسن الوزان، فيبدو أنّ بداية السنة الفلاحية تكون مع شهر أكتوبر، وسقوط الأمطار تحديداً به ليس بالضرورة أن يكون معياراً جازماً لنجاح العام الفلاحي أو ضياعه، ومما نستدل به ما نعيشه اليوم، من حالات مناخية مختلفة تبرز لنا وبصورة واضحة بأن ضمان السنة الفلاحية يكون رهن التساقطات المنتظمة خلال طول السنة، ويكون في شهري فبراير ومارس، ومن أهم الشهور التي تكون الأرض فيها بحاجة كبيرة إلى مياه الأمطار، خاصة الأراضي البعلية منها، والتي تروى بماء المطر (ابو مصطفى، 1997م، صفحة 62)، وفيها تكون النباتات على وشك النضج.

ثانياً: أهم الطقوس والعبادات الاستمطارية في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني:

1- صلاة الاستسقاء: أ- تعريفها: لغة: هو استفعال من السقيا، والسقيا بضم السين: أي إنزال الغيث على البلاد والعباد (ابن منظور، 1410هـ-1990م، صفحة 393)، أما السقيّ والسقيا: هو أن تعطيه ما يشرب (ابن منظور، 1410هـ-1990م، صفحة 391)، والاستسقاء: أن تجعل له ذلك حتى يتناوله كيف يشاء، والاستسقاء: طلب السقي أو الاستسقاء (ابن منظور، 1410هـ-1990م، صفحة 392)، أمّا من الجانب الشرعي: فهو طلب السقي من الله عند الحاجة إليه ويكون بإقامة صلاة وخطبة واستغفار وحمد وثناء، وحين ينحبس المطر وتزيد الحاجة إليه من أجل السقي والشرب للإنسان والحيوان (عبد العزيز العبادسة، 422 هـ / 2002 م، صفحة 20)، وعلى العباد أن يستغفروا ربهم لينزل عليهم المطر، وتكون هذه الصلاة عندما يحل الجذب (ابو بكر الجزائري، 1384هـ-1964م، صفحة 231)، ويحتاج الناس إلى المطر لزروعهم وشرب ماشيتهم، حينها يخرجون متضرعين إلى بارئهم بالدعاء والاستغفار وطلب الغيث (بن عبد العزيز بن عبد الله، 1417هـ-1996م، صفحة 418).

ب- كيفية أدائها :

كثيراً ما يلجأ أهل السنّة زمن القحط والجذب إلى صلاة الاستسقاء، وهي سنّة مؤكّدة أقربها الإسلام، تقام بحضور الامام والمصلين، وهي ركعتان تصلى جهراً، يقرأ في الركعة الأولى بسورة الفاتحة والأعلى، والركعة الثانية بالغاشية بعد الفاتحة، وإن شاء الإمام يكبر في الأولى سبعاً، وفي الثانية خمساً (ابو بكر الجزائري، 1384هـ-1964م، صفحة 232). ثم تُلقى الخطبة بعد الصلاة، ويمكن أن تكون في

البداية، كما يتم قلب ثيابهم، امتثالا لما رُوي عن الرسول ﷺ عن تحويل الرداء في صلاة الاستسقاء، "أنَّ النبي ﷺ استسقى، فقلب رداءه" (البخاري، 1423هـ-2002م، صفحة 245)، وأن يجعلوا ما بأيامهم على شمائلهم، وما على شمائلهم على أيامهم مستقبلين بذلك القبلة، رافعين أيديهم إلى السماء (السيد، (دت)، صفحة 215)، وداعين الله أن ينزل عليهم الغيث وأن تكون سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، أما وقت صلاتها، فيستحب أن يكون وقت صلاة العيد، وهي جائزة في كل وقت، ما عدا الأوقات التي تُهي عن الصلاة فيها. (ابو بكر الجزائري، 1384هـ-1964م، صفحة 232).

لقد بيّن لنا الإسلام أن للإنسان ابتلاءات في الدنيا، ومنها القحط والنقص في الأمطار، وكثيرا ما كانت سنوات الجفاف تأتي متتالية، وعن ذلك يخبرنا تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونَا فِي رُءُوبِنَا إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّءُوبَا تَعْبُرُونَ﴾ (سورة يوسف الآية 43) ويضيف جل شأنه قائلا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (سورة يوسف 46-47-48)، وهي إشارة واضحة للعباد لتأمين معاش حياتهم وهذا ما كان يدفع بالسكانة إلى ادخار جزء من مؤنهم لزمن الحاجة .

وهناك صور كثيرة للقحط والجفاف تناقلتها المصادر التاريخية، سواء قبل فترة الدراسة أو تزامنا معها كانت سببا في حدوث مجاعات شديدة، أكل الناس فيها بعضهم البعض، وتفشت بينهم الأوبئة والأمراض حتى هلك منهم عدد لا يحصى، فدفن في القبر الواحد أعداد من الموتى بلا غسل ولا صلاة (ابن أبي زرع ، 2014م، صفحة 83).

ولكن الله وسعت رحمته كل شيء، فأمر عباده بكثرة الاستغفار ليرسل عليهم الماء من السماء ويفك أزمته، وينزل رحمته بعد قنوط أصابهم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (سورة نوح، الآيات 10-11-12).

لم تكن فترات الجفاف خاصة بأمة من الأمم، أو بزمن معين وإنما هي ظاهرة كونية ستظل قائمة إلى يوم الدين، فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: "شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قحوط، المطر ... فقال: "إنكم شكوتم جذب دياركم، وقد أمركم الله أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم" ثم حمد الله وقال: "اللهم لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين"، ثم رفع يديه فلم يزل يدعو، حتى رؤي بياض إبطيه، ثم حوّل إلى الناس ظهره وقلب رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ونزل فضلى ركعتين فأنشأ الله تعالى سحابة فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله تعالى، فلم يأت مسجده حتى سألت السيول (السيد، (دت)، صفحة 216).

كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا اشتد الحال بالمؤمنين وانحبس المطر عنهم وأصيبوا بالجفاف يخرج إلى المصلى فيقيم صلاة الاستسقاء رفقة المسلمين ويدعو الله أن يسقيهم، ولمواجهة الجفاف ظلت هذه الشعائر الدينية، متواترة عند ساكنة بلاد المغرب الأوسط في العهد الزياني، كونهم يعتمدون المذهب المالكي، ويستندون على الكتاب والسنة النبوية في تطبيق أحكامهم، وكثيراً ما يحرصون على أداء صلاة الاستسقاء اقتداء بسنته الطاهرة، وكان يُسمح حتى إلى الصبيان بتأديتها، مُردِّدين بعض الأدعية لطلب المطر منها: "مولانا نسعاو رضاك وعلى بابك واقفين، لا من يرحمنا سواك، يا أرحم الراحمين"، وقولهم أيضاً: "غيثك غيثك يا الله، ارحم عبيدك يا الله" (بكاي، 2013-2014م، صفحة 60).

وكان لا بد على المقيمين لصلاة الاستسقاء؛ أن يخصص دعاؤهم على أن تكون أمطار رحمة ولا سقيا عذاب ولا بلاء ولا هدم ولا غرق (السيد، (دت)، صفحة 219)، ويجب الإشارة إلى أن طلب المطر لا ينبغي أن يكون إلا إذا بلغ الجفاف أوجّه، لأن كثرتة أيضاً قد تشكل طوفانا يفتك بالأمة ويتحول من نعمة إلى نقمة، أما عن تطبيق طقوس الاستمطار لم يكن لها زمن محدد، فإذا كانت صلاة الاستسقاء من الشعائر الدينية التي لا تُقام إلا في حالة الجذب والجفاف، فإن ممارسة طقوس طلب المطر كانت هي الأخرى مرتبطة بانحباس المطر، وهذا ما يفسر الاعتقاد الذي ينص على امتزاج العادات والتقاليد المحلية المنتشرة بين سكان بلاد المغرب الأوسط وتعاليم الدين الإسلامي (بل، سبتمبر 2016، صفحة 10)، ويبدو أن ممارسة طقوس المطر، لم تتمكن الأديان السماوية من القضاء عليها (بن عبد العزيز بنعبد الله،

1417هـ-1996م، (صفحة 447)، طبقا لدلالاته الاقتصادية المؤثرة في نفوس سكان البلاد بالمجال قيد الدراسة.

2- بعض نماذج طقوس الاستمطار ببلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني:

تختلف الطقوس الخاصة بالاستمطار ببلاد المغرب الأوسط من منطقة لأخرى، وهي بعيدة كل البعد عن الشعائر الإسلامية السنية، بل مستمدة من الطقوس الوثنية القديمة (بل، سبتمبر 2016، صفحة 65)، وعادة ما تمثل الطقوس والمعتقدات الدينية وممارستها ببلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني جزء لا يتجزأ من ثقافته الشعبية، وأبعادها الاجتماعية والدينية وحتى الاقتصادية، خاصة في البوادي والمناطق الريفية، والتي نذكر منها بعض النماذج.

أ- طقس غنججة:

من الطقوس المعهودة لدى شعوب شمال افريقيا عامة، طقس "غنججة"، وهي عبارة عن ملعقة كبيرة خشبية تصنعها النساء على شكل دمية وتزين في حُلَّة عروس، وتختلف تسميتها حسب اختلاف مناطق بلاد المغرب، وتسمى أيضا: "تاغنججة"، وتمثل إلهة فعلية للمطر (بل، سبتمبر 2016، صفحة 93) و"أم الغيث" (بن عبد العزيز بن عبد الله، 1417هـ-1996م، صفحة 447)، و"تاسليت أونزار" وهي أسطورة قديمة تجسد أونزار كإله للمطر، وتاسليت هي الأرض، وهو تشخيص لهما بالرجل والعروس، فتم الزواج بينهما بعد علاقة حب عميقة، ومنذ ذلك الحين أصبح أونزار هو صاحب القدرة على اخصاب العروس والمتمثلة في الأرض بماء السماء، وهو المطر (بل، سبتمبر 2016، صفحة 17)، وتعد ممارسة هذا الطقس من أقدم طقوس الاستمطار بالمنطقة، ففي قصور الجنوب الوهراني (بل، سبتمبر 2016، صفحة 67)، وعندما يحل بها الجفاف وتضرر المحاصيل، تتجمع النساء المسنات، والأطفال الصغار ويقمن بجمع الدقيق ويوضع في أطباق خشبية، ويقومون بصنع دمية في حُلَّة عروس مستعملين ملعقة كبيرة خشبية تسمى "غنججة"، فيحملونها ثم يطوفون بها حول أضرحة الصلحاء، مرددين شعارات منها:

غنججة حلت راسها يا ربي تبل خراصها
السبولة عطشانة رويها يا مولانا

وبعد الوصول إلى الضريح يقومون بإحراق البخور ورشّه بالحناء ثم توزيع أكلة الروينة على كل الحاضرين (بل، سبتمبر 2016، صفحة 68)؛ وإذا لم تمطر بعد هذا الاحتفال، يقوم الرجال بزيارة بقية الأضرحة للأولياء الصالحين المتواجدين بالقرب من قراهم، وهم حفاة عراة الرؤوس يقودون ثوراً أسوداً وهم ينشدون:

" يا رجال الله حنوا وجودوا ❖ وارغبوا المولى يسقي عباده

حينما لله قاصدين نمشوا على الأقدام ❖ وأنتما يا أهل الوفا بالجدود والكرام

ومع إنهاء طقوسهم يذبحون الثور ويوزعون اللحم على كل البيوت لإعداد الطعام، وإقامة الوعدة وهو حلٌّ لكل الحاضرين، سواء أهل المنطقة أو الغرباء الوافدين بدون تمييز ولا تفضيل (بل، سبتمبر 2016، صفحة 69).

وكثيراً ما كان سكان بلاد المغرب الأوسط يتبركون بالثور الأسود، أو البقرة السوداء، ويتخذونها مصدراً لجلب المطر، فكانت تلك عوائد أهل بني شقران أيضاً (بل، سبتمبر 2016، صفحة 70)، ومن الشعارات الاستمطارية التي كانوا يرددونها في إقامة طقوسهم ما يلي:

" يا البقرة الكحلء سيدة البقر ❖ اطلب المولى يعطينا لمطر " (بل، سبتمبر 2016، صفحة 70)

ومنها أيضاً:

" يا ربي النو ❖ يا ربي النو " (بل، سبتمبر 2016، صفحة 71)

ومن الملاحظ أنّ معظم طقوس الاستمطار المعروفة بمختلف مناطق البلاد الزيرية، تتخذ الأولياء والأضرحة سنداً لها في طلب "المطر"، والتقرب بالثور الأسود كقربان لها (بل، سبتمبر 2016، صفحة 70) أو تيس، أو كبش أسود؛ واستعمال رمز الكبش كأداة يتبركون بها في إنزال المطر، يشكل محورا أساسيا في الفضاء الديني والعقائدي للبربر، وأنّ أهميته في مجال اتسم مناخه بطابع شبه جاف، جعله يتخذ في الدهنية البربرية مكاناً متميزاً، ركزت حوله العديد من الطقوس الدينية التي سعت إلى جعل هذا العنصر الحيوي أكثر ثراءً، حتى يساهم في خصوبة الأرض والانسان الذي يعيش عليها (بلقفايدة، 1999م، صفحة 165).

أمّا اتخاذ اللون الأسود للقربان فقد كان يمثل شعاراً طقوسياً قديماً، وعن التبرك بالحيوان وعلاقته بالماء فيذكر بن عميرة: " أنّ سكان وادي ريغ ينسبون أصل آبارهم الارتوازية إلى ذي القرنين الاسكندر الأكبر الذي يعتبر تجسيدا لأمون وهو الاله المحسد في رأس الكبش " (بنميرة، 1995م، صفحة 221).

ب- طقس رمي الحجر بالقناطر:

ومن الطقوس أيضا التي كان يقوم بها أهل تلمسان لطلب الاستمطار، كانوا يجمعون الحجارة من جبل البغل (البكري، 2013م، صفحة 165) المطل على قرية العُباد (الميلي، (دت)، صفحة 445) مرددين كلمة "يا لطيف"، ثم يضعونها في سلة من الحلفاء، وإذا امتلأت يتوجهون بها نحو نحر الصفيصيف (النميري، 1990م، صفحة 487)، فيطوفون به ثم يغمرون تلك السلة بجسر مسكرة الذي يبعد عن تلمسان بحمس كيلومترات في الطريق المؤدية إلى عين تموشنت، وإذا جادت السماء عليهم بالمطر تُسحب تلك السلة من قعر النهر (بل، سبتمبر 2016، صفحة 74).

ولعل ظاهرة جمع الحصى وغسلها ثم رميها في القناطر، من الطقوس الاستمطارية الخاصة بأهل تلمسان، وهذا ما ينقله لنا أحد العلماء في قوله "أنَّ أهل فاس كانوا إذا تأخر نزول المطر عندهم اجتمع لديهم مهاجروا مدينة تلمسان في ضريح أبي الحسن بن حرزهم، ويقومون بجمع سبعين ألف من الحصى ويغسلونها بالماء، ثم يتلون قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (سورة الشورى، الآية 26)، وتكون التلاوة على عدد الحصيات التي جمعوها، وكلما أُنهوا مائة دعوا دعاء خاصا... ثم يجمعون الحصيات في قَفْفٍ، ويخرجون بها حفاة إلى "قنطرة سبو"... ويرمونها بالقنطرة مهللين بالدعاء والاستغفار (عبد العزيز العبادسة، 422 هـ / 2002 م، الصفحات 443-444).

وكان أهل تلمسان، يشيرون إلى طلب المطر باسم "اللَّطِيف"، وهي دلالة على توجيه الطلب لله وكانت تأديتها عن طريق إقامة احتفالات غير منتظمة زمن الجفاف طلبا للاستمطار، وكان يشار إلى هذا الجفاف باسم "الوكفة" أو "الوقفة"، ويمكن انقاز المحاصيل الزراعية إذا ما سقطت الأمطار بعدها أو "البيسة"، والتي لا يمكن إحياء المحصول بعد تساقطها (بل، سبتمبر 2016، صفحة 65).

كثيرة هي العوامل والأسباب التي جعلت من الماء مركزا لاهتمامات سكان بلاد المغرب الدينية، فهي مرتبطة بالظروف المناخية السائدة، ونتيجة لحاجتهم الكبيرة بالماء، كان من الطبيعي أن يضيفي السكان قداسة على الماء، خاصة بالمناطق الجافة (بلفايدة، 1999م، صفحة 34).

ولم تقتصر طقوس الاستمطار في تلمسان عاصمة بني زيان، بالمسلمين فقط، بل كان لليهود أيضا اهتمامهم بها، رغم أنَّ أغلبهم لم يهتموا بممارسة الزراعة، لكنهم كانوا يدركون أن أساس الاقتصاد

وتكامله مع جميع القطاعات الأخرى، هو سقوط الأمطار، هذا ما جعل شيوخهم يجتمعون بشكل دائري حول قبر ربي صالح (رجل دين)، ويبقى الشباب بعيدين قليلا، أما الأطفال فمكائهم يكون بمعزل عن الجميع ويقرؤون بشكل جماعي آيات من التلمود (بل، سبتمبر 2016، صفحة 63)، ثم يرددون دعاءهم بالعربية: "يا ربي اعطنا الشتي وحن علينا، ما تقبضها شي في ذنوبنا" ويعملون بتكرار هذا الدعاء وهم يتضرعون ويكونون، ويظلون كذلك لأيام عديدة وهم صائمون، حتى ينزل المطر، فتقام حينها الذبائح ويتناولون لحومها، ويستبشرون خيرا بهذا المطر (بل، سبتمبر 2016، صفحة 64).

ج - طقوس التبرك بالأولية والصلحاء واقامة الوعدة:

من الواضح أن أهل تلمسان هم أيضا ممن يتخذون أولياءهم مرجعا لهم في طلب المطر، فإذا هددتهم الجفاف لجأوا إلى أوليائهم وتجمعوا بأحوازها على شكل مواكب، وكان أهمها سيدي الداودي (ابن فرحون، 1417هـ-1996م، صفحة 94). وهم ينشدون:

يا مولانا يا سميع الدعاء نزل لنا الغيث من السماء
أنت المغيث يا ربنا غيثنا ولا تحاسبنا بما فعلنا

ثم يواصلون طوافهم عبر العديد من الأضرحة الأخرى والصلحاء وهم يرددون:

يا رجال الله حنوا وجودوا وارغبوا المولى يسقي عبيده يا ربي استقبل لدعواتنا
بجاه فاطمة بنت المختار نبينا يا ربي غيثنا بنعمتك بجاه محمد رسول
وبوبكر وعثمان وعمر وعلى سيدنا يا ربي تسقينا وتسقي المومنين والعباد
أجمعين بجاه محمد

وإلى جانب هذه الأناشيد، يقوم الطلبة باستظهار الحزب باختيارهم سورة الفتح من القرآن الكريم ويطلبون من الولي الصالح التشفع لهم عند الله لصالحهم (بل، سبتمبر 2016، صفحة 73).

وعن ذلك تحدث أهل تلمسان أنهم قحطوا وقلت أمطارهم، فاستسقوا بالولي الصالح الشيخ أبو زكرياء بن يوغان الصنهاجي (ت537هـ) (التادلي، 1437هـ/2016م، صفحة 84)، فسقوا، ومما كان يسلم به في بلاد المغرب عامة، ومنها بلاد المغرب الأوسط، على وجه الخصوص؛ هو الاعتقاد بأن اللجوء إلى الصلحاء ومنهم أصحاب النسب الشريف خاصة (بل، سبتمبر 2016، صفحة 13) في طلب الاستمطار والوقوف على قبورهم ضمان لسقوط المطر، وتحقيق خصوبة المنطقة، وهذا ما يشير إليه

الشاعر ابن خميس حول سيدي بومدين (ابن قنفذ، 1403هـ-1983م، الصفحات 297-298)
قائلا: "

وجاد الغيث تاج المعارف ديمة ﴿﴾ تغض بما تلك الربى والأباطح

(ابن خلدون ي..، 2011م، صفحة 123).

وهم حُفاة عُراة الرؤوس، ومعهم ثورا أسودا، وهم يرددون:

يا رجال الله حنوا وجودوا ﴿﴾ وارغبوا المولى يسقي عباده

جينا لله قاصدين نمشوا على الأقدام ﴿﴾ وأنتما يا أهل الوفا بالجوود والكرام

وبعد طوافهم حول ضريح الولي، يقومون بذبح الثور المرافق لهم، ويوزعون لحمه على كل سكان القرية ثم يُعَدُّون الطعام، بالقرب من ضريح الولي الأكبر الشيخ السنوسي (فيلاي، 2002م، صفحة 152)، غير بعيد عن قرية العباد، ويدعون كل الفقراء وعابري السبيل (بل، سبتمبر 2016، صفحة 75)، وطلبة المساجد للأكل (بل، سبتمبر 2016، صفحة 69)، وعند الانتهاء، يجتمع طلبة المسجد رفقة الإمام، وكل حفظة القرآن الكريم، ويتلون ما تيسر منه، ويتضرعون إلى الله تعالى بالدعاء، ثم يتفرقون (بل، سبتمبر 2016، صفحة 70)، وكثيرا ما كانت هذه النوايا صادقة، ولا يكاد الجمع يتفرق حتى، تتلبد السماء بالغيوم، وتمطر غيثا نافعا يستبشر الناس بقدمه خيرا، وتفرج كريحهم.

ومن بركة أولياء تلمسان يروى أن ابن قنفذ القسنطيني (التبكتي، 1398هـ-1989م، الصفحات 109-110) قد زار قبر الشيخ أبا مدين في عام 776هـ/1374م، وكانت قد ضربت بلاد المغرب الإسلامي قاطبة بمجاعة عظيمة، وصلى به ركعتين كما صلى أيضا على الرسول الكريم ثم نادى قائلا: "يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك، ولنا معك وسيلة عهد وسند متصل قريب غير منفصل، والغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال اللهم إنا نتوسل إليك بأنبيائك وأوليائك، يسّر لنا في ذلك يا قريب، يا سميع الدعاء يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام" فيسر الله طلبه وحلّ الخير وذهب عنهم كلّ شر (ابن قنفذ، 1965م، صفحة 105).

إنّ قلّة المياه ببعض المناطق ببلاد المغرب الأوسط، ومنها الصحراوية جعلت منه موضوعا للخوارق ومادة للكرامات، وذلك بالتّخاذ بعض الشخصيات أبطالا تجسّدت فيهم قوّة تفجير الماء وانقاذ العباد من

العطش، أو قدرة رجل من إرواء جمع من تابعيه بإناء ماء واحد بفضل بركته ولم ينتقص منه شيئا (خليفة ، 2001/2000م، صفحة 263) .

تعمل الطقوس المائية على إحياء صور المقدّسات لدى شعوب المنطقة، ومنها تبجيل الأضرحة والصالحين، واعتبارهما من آليات ورموز التواصل بينهم وبين الله في تحقيق مطالبهم الخاصة بالمطر، وكانت أضرحة الأولياء والصالحين ملجأ أيضا لساكنة بلاد المغرب الأوسط لطلب الغيث، ومنها قبر الشيخ أبو مدين والوقوف عنده، وطلبه للتقرب إلى الله لينزل غيثه لإنقاذ الشيوخ الركع والصبية الرضع والبهائم الرنع، ومن الأمور الشائعة في بلاد المغرب عامة ومنها المجال قيد الدراسة، أنه كان التبرك بالأولياء وكان بجوار كل عين ماء وليا صالحا، وكثيرا ما يربطون تواجد الماء بهذا الولي أو ذاك (بل، سبتمبر 2016، صفحة 49) .

وعن دور ماء العين في الاحتفالات الطقوسية والدينية، المرتبطة بالولي، كانت هناك عين وانزونة خارج باب الجياد (فيلاي، 2002م، صفحة 152)، بالقرب من مقبرة سيدي السنوسي (نويهض، 1400هـ-1980م، الصفحات 180-181)، بتلمسان في الطريق المؤدية إلى العباد، وهي محل تقديس لأهل تلمسان، كما يوجد بمنطقة قباسة حاليا بمقبرة اليهود عين ماء عذبة مقدّسة بالقرب من قبر الربّي عنقاوة وهي منسوبة إليه (بل، سبتمبر 2016، صفحة 49)، وله ارتباط وثيق بالماء الموجود بها لدى ذهنيات الشعوب وفي معتقداتهم، ويعتبرون في الغالب أنّ هذا الولي هو من قام باستخراج هذا الماء بطريقة إعجازية، كما فعل سيدنا موسى وعنها يخبرنا تعالى في قوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية 59).

ومن الطُّرق أيضا التي عهدتها المغاربة في طلب الغيث هو التبرك بالأولياء والرجال الصالحين وطلبهم بالتقرب إليهم من الله بالدعاء حتى ينزل المطر، ومن الدلالات على ذلك لما لجأت جماعة من الناس إلى الولي يعزى (التبكي، 1398هـ-1989م، صفحة 109)، فالتفته واشتكت إليه احتباس المطر عنهم فرمى شاشيته عن رأسه، وبقي رأسه أبيض كأنه ثغامة وتجرد من برنوسه وأرسل عينيه بالبكاء وقال: "يا مولاي، هؤلاء السادات يرغبون من هذا العبد أن يستسقي لهم وما قدرني أنا حتى يُطلب مني هذا؟"

وأخذ في البكاء والتضرع إلى أن غيَّمت السماء، وهملت بالأمطار حتى نزعت نعلي من رجلي ومشيت حافيا من كثرة المطر، وقد أجاب الله دعوته" (التادلي، 1437هـ/2016م، صفحة 145).

وفي غالب الأحيان كان الاعتقاد بحلول الجفاف يعود سببه لكثرة الذنوب والمعاصي التي يرتكبها البشر امثالا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. (سورة الشورى، الآية 28)، مما يدفع بالسكان إلى التوبة إلى الله، والاكثار من أفعال الخير، والإسراع إلى طلب المغفرة من الله وإقامة الصلوات والصيام، وزيارة الصلحاء الأحياء منهم والأموات، حتى يكرمهم الغيث ويحبي أرضهم (بل، سبتمبر 2016، صفحة 13).

ويذكر ابن الزيات التادلي فيما حدث لأهل تلمسان، "أهم قحطوا فاستنجدوا بأبي زكرياء بن يوغان الصنهاجي، فاستسقوا به فسقوا" (التادلي، 1437هـ/2016م، صفحة 85)، أمّا فيما يتعلق بالمعتقدات والتصورات التي تمثل الخوارق والعجائب في سقوط المطر، فقد تعددت مظاهرها في الثقافة الشعبية لدى ساكنة بلاد المغرب الأوسط في العهد الزياني.

خاتمة:

ولأهمية الماء كان ساكنة بلاد المغرب الأوسط يتقربون إلى الله، بإقامة بعض الطقوس من أجل التوسّل إليه لطلب المطر لتسقي أراضيهم، وتقديم القرابين كذبح الثيران والكباش وتوزيعها على السكّان خاصة أهل القرى، أمّا رجال الدّين فكان من واجبهم إقامة صلاة الاستسقاء، كما لا يخفى أيضا أنّه كان للطقوس وضعها في طلب الغيث، بحيث كانت تذبج الذّبائح بالقرب من الأضرحة وتقام الوزائع من اللّحم لتوزّع على سكان الأرياف، ويعدّ الطعام ما يسمّونه بالوعدة.

ومن النتائج التي يمكن استخلاصها من هذه الورقات البحثية ما يلي:

- يعتبر انحباس المطر هاجسا اقتصاديا يهدّد استمرارية حياة الشّعوب، ممّا دفعهم إلى البحث عن الكثير من الطقوس وممارستها رغم انتشار الإسلام وتجدّره في أوساطهم.

- تعدّ ممارسة طقوس المطر ببلاد المغرب الإسلامي عامّة، والأوسط خاصّة خلال فترة الدّراسة جزء لا يتجزأ من أصول ثقافته الشعبيّة لايمكن الاستغناء عنها، وهي متجذرة في عاداته وتقاليده ومعتقداته وهذا ما انعكس على تلك الممارسات الطقوسية التي ظلّ متمسكاً بها إلى اليوم، خاصة بالمناطق الريفية إلاّ أنّ ممارستها أصبحت تتلاشى في الوقت الراهن وهي على حافة الزوال.

- شكّلت المجتمعات الزيانية أحد المجتمعات التي يعتبر فيها الماء عنصراً مقدّساً، خاصّة بالمناطق الصحراوية والمناطق القليلة المياه.

- تكاد تكون طقوس الاستمطار متشابهة المراسيم في التطبيق، في كل المجال الجغرافي للدولة الزيانية ومهما اختلفت طرق ممارستها حسب كل منطقة، إلا أنّ الهدف من أدائها هو ترقيب سقوط المطر من أجل إعادة احياء الأرض بعد جفافها.

- يبدو للعيان أنّ ممارسة طقوس الاستمطار بمجال الدولة الزيانية أنّها مجرد أفعال وأهازيج تُردّد، إلا أنّها تحمل في أعماقها دلالات ثقافية وأنثروبولوجية ضاربة بجذورها في عمق التاريخ.



القربان الطقوسي للاستمطار



الطواف بمغرفة القدر وهي كبيرة مصنوعة من الخشب واسمها غنججة.

- قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. السنة النبوية
3. ابن أبي زرع الفاسي، 1965م، أنس الفقير في عز الحقيز، تحقيق: محمد الفاسي وأدولف فور منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط.
4. _____، 2014م، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس تحقيق: كارل بوحن نورتيغ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1.
5. ابن الحاج النميري، 1990م، فيض العباب وافاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة واعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1.
6. ابن خلدون عبد الرحمن، 1431هـ/2001م، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ج1، المقدمة.
7. ابن فرحون المالكي، 1417هـ-1996م، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
8. ابن قنفذ القسنطيني، (1403هـ/1983م)، الوفيات معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين من 11 هـ-807هـ، المجلد4، عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة.

9. ابن منظور، (دت)، لسان العرب، دار المعارف، م 6-14، بيروت.
10. أبو بكر جابر الجزائري، 1384هـ-1964م، منهاج المسلم، كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات، المدينة المنورة.
11. أبي زكرياء يحيى ابن خلدون، 2011م، بُغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقلمم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات، ج 1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر طبعة خاصة.
12. أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، 1423هـ/2002م، صحيح البخاري، ط 1، دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، بيروت.
13. أحمد بابا التنبكي، 1398هـ/1989م، نيل الابتهاج بتبريز الديباج، المجلد 1، تحقيق: عبد الله الهرامة وعبد الحميد منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس.
14. ألفرد بل، (سبتمبر 2016م)، بعض طقوس الاستمطار إبان الجفاف لدى المغاربيين ترجمة: آيت اومغار سمير، تقلمم: خالد طحطح، مطبعة بني زناسن، سلا، المغرب.
15. بكاي عبد المالك، 1434-1435هـ/2013-2014م، الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7-13هـ/16-13هـ، أطروحة مقدمة، لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، شعبة التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة.
16. البكري (ت 487هـ)، 2013م، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تقلمم وتحقيق: حماد الله ولد السالم منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1.
17. بن عبد العزيز بن عبد الله محمد، 1417هـ-1996م، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ج 2.
18. الحسن الوزان، 1983م، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ج 1، ط 2، بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، ج 1.
19. خليف عبد القادر، 2001/2000م، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة، رسالة دكتوراه دولة نوقشت بقسم اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران.
20. ستيفان قزال، 2007م، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة: محمد التازي سعود، مطبعة المعارف الجديدة، ج 6، (الممالك الأهلية حياتها المادية والفكرية والروحية)، الرباط.
21. السيد سابق، (دت)، فقه السنة، المجلد 1، دار الكتاب العربي، بيروت.
22. شاكرا مصطفى سليم، 1981م، قاموس الأنثروبولوجيا، إنجليزي-عربي، ط 1، جامعة الكويت.
23. شهيرة بوخونوف، 2012م، أساطير وطقوس الاستسقاء واستقبال الربيع في منطقة خراطة (بجاية) -مقاربة أنثولوجية- مذكرة لنيل درجة الماجستير، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

24. عادل نويهض، 1400هـ-1980م، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت.
25. عبد العزيز العبادسة فتحي، 422هـ/ 2002 م، الماء في القرآن الكريم، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية، غزة.
26. عبد العزيز بلفايدة، 1999م، مقال "الماء بين المقدس والمنفعة العامة في شمال افريقيا ما قبل الإسلامية على ضوء النقائش"، ضمن كتاب "الماء في تاريخ المغرب"، سلسلة ندوات ومحاضرات، أيام 10-11-12 ديسمبر 1996م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
27. عبد العزيز فيلاي، 2002م، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ج2.
28. كمال أبو مصطفى، 1997م، جوانب من حضارة الغرب الإسلامي - من خلال نوازل الونشريسي - مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر.
29. مارمول كاربخال، 1404هـ/1984م، افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ج1.
30. مبارك بن محمد المليي، (د ت)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد المليي (دط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2، الجزائر.
31. محمد بن عميرة، 2005/2004م، الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة الجزائر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، غير منشورة.
32. يوسف بن يحي التادلي، 1437هـ/2016م، التشوف الى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي، تحقيق: الكيالي عاصم إبراهيم، كتاب ناشرون، لبنان.
33. Jean Maisonneuve, 1988, Les Rituels, 1er édition Universitaires de France, Paris, France